

لماذا شكَّ قديسٌ في توبته وهو على فراش الموت؟

التواضع العميق لدى القديس سيسوي الكبير

الأب إفجانيوس مورزين

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إنَّ القديس البارَّ سيسوي الكبير، أحدَ أشهرِ قاطني الصحراء والنُّسَّاك في الرهبة المسيحيَّة في القرن الخامس، تفوَّه قبل موته بعبارةٍ فاجأت تلاميذه بشدَّة. ما الذي قاله الشيخ القديس، وكيف يجب أن نفهم كلامه؟

تصِفُ سيرة القديس القصةَ الحقيقيَّة على النحو التالي: بينما كان البار سيسوي مضطجعاً على فراش الموت ومُحاطاً بتلاميذه وأتباعه، أشرق مُحيَّاه فجأةً ولمع بنورٍ سماويٍّ سرِّيٍّ. عندما سأله تلاميذه عمَّا كان يحدث، أجاب بأنَّ البار أنطونيوس الكبير قد زاره للتو. أفصحَ الشيخ عن رؤيته أنبياء ورسلاً وأخيراً ملائكةً جاؤوا لأخذ نفسه. قال سيسوي لتلاميذه: "جاء الملائكة ليأخذوني، ولكنني أصلي أن يتركوني فترةً قصيرةً لكي أستطيع أن أتوب". فقال التلاميذ متفاجئين: "لا حاجة لك إلى التوبة أيها الأب". فأجاب الشيخ: "حقاً إنني لا أدري إذا ما كنتُ حتَّى قد بدأتُ توبتي". ثمَّ رأى سيسوي الربَّ نفسه واستودعَ روحه بين يديه.

لكي نفهم دهشة التلاميذ، دعونا نتطرَّق باختصارٍ إلى حياة البارِّ سيسوي. كان تلميذاً للبارِّ أنطونيوس الكبير مؤسس الرهبة، وبعد رقاد معلّمه عاش في كهف أنطونيوس. بلغ سموّاً روحياً حتَّى إنَّه بنعمة الله طرد الشياطين وأقام الموتى. وكما كتب القديس ديمتريوس روستوف عن حياة البارِّ، فإنَّ "كلَّ الأرواح الشريرة ولَّت هاربةً منه، ولم تتجرأ على الاقتراب من جنديِّ المسيح الشجاع الذي لا يُقهر". والآن نجدُ هذا الرجل، الذي كان يُعتبر قديساً خلال حياته، يقول قبل رقاذه إنَّه لم يبدأ بالتوبة بعد. ما هذا؟ أهورياء؟ أهو تواضعٌ مصطنعٌ؟ أهي وسيلةٌ تربويَّة؟ إنَّ ذلك مستبعدٌ بالنظر إلى مهابة تلك اللحظة وأهميتها، والتي كانت مصحوبةً برؤى مذهلة ومخيفة في الواقع (تخيّلوا أن تكونوا على حافة الأبدية، و ترون في الحقيقة

القديسين والملائكة والمخلص). أشك في أن أحداً قد يختار في لحظات كهذه أن يكون مُخادعاً أو غير صادق.

لكي نفهم الحالة الداخلية لسيسوي الكبير ومعنى الكلام الذي قاله، من الضروري الوقوف على ما تعنيه التوبة في تقليد الكنيسة الأرثوذكسية. إذا ترجمنا كلمة (μετάνοια) ترجمةً حرفيةً عن اليونانية، نجد أن التوبة تعني "تغيير الذهن". وهي تدلُّ على تغييرٍ روحيٍّ داخليٍّ نوعيٍّ. تتضمن التوبة وعي المرء لحالته الخاطئة، والانسحاق والسعي للتقويم والتغيير. إن إدراك المرء لحالته الخاطئة وفهم أن الخطيئة تُعزِّبه عن الله هما خطوة أولى مهمّة تتطلّب قبل كل شيء صدقاً مع الذات. تتبع ذلك التوبة، وهي ندمٌ صادقٌ على الخطايا المرتكبة. تتجلّى التوبة في سرّ الاعتراف، الذي يتلقّى فيه الشخص المغفرة ونعمة الله ليواجه الخطيئة ويتغلّب عليها. ختاماً، إنّ المرحلة التالية، والتي تدوم حتى الموت، هي جهدٌ مستمرٌّ من المرء لتصحيح حياته واستئصال أسباب السلوك الأثيم. التوبة في الكنيسة الأرثوذكسية هي عمليةٌ روحيةٌ عميقةٌ غايتها إحداث تحولٍ في الحياة واستعادة الصلة المفقودة مع الله، يكتسب فيها المرء نعمة الله ويحقق السلام الداخلي والفرح الكامل.

ثمّة اتّجاهٌ واحدٌ هنا. كلّما تاب الشخص على نحوٍ أعمق، كرّس وقتاً أكبر للحياة الروحية، واعتبر ذاته خاطئاً أكبر. في عملية التوبة، يبدأ الإنسان برؤية خطيئته على ضوء برّ الله. كلما اقترب من الله أكثر، أدرك حالته الخاطئة بوضوح أكبر. كتب القديس يوحنا الذهبي الفم بهذا الخصوص أن التوبة الحقيقية تجلب نوراً يسمح للمرء برؤية عمق خطيئته. ردّد البارّ بطرس الدمشقي ذلك مشيراً إلى أن "أول علامة على بداية سلامة النفس هي رؤية الإنسان لخطاياها على أنها لا تُحصى، مثل رمل البحر". يبدأ الإنسان بتمييز، لا خطاياها الظاهرة فحسب، بل أيضاً إمكانيّة الخطيئة في الأفكار والنوايا وحالات القلب. يدرك أن الخطيئة لا تقتصر على الأفعال الخارجية، بل يمكن أن تتطوّر عندما يختار المرء أن يحاور أفكاراً ونزعاتٍ خاطئةً ويقبلها. يرى أن الخطيئة غير مقيّدة بالأفعال الخارجية بل تتغلغل إلى أعماق النفس. شدّد كثيرٌ من الآباء القديسين على أن التواضع والتوبة متلازمان، ما يؤدي إلى إدراك استحالة الخلاص من دون النعمة والرحمة الإلهيتين. لذلك فإنّ التوبة تُسهّم في تنمية التواضع، الذي هو وعيٌ يقظٌ لحالة المرء أمام الله.

يجب أن نفهم كلمات القديس سيسوي الكبير من هذا المنظور، هذه الكلمات الذي قالها من أعماق تواضعه. بالرغم من برّه الواضح في أعين الآخرين، فإنّه وهو على عتبة الأبدية، ومدركٌ تمامًا لحضور العالم العلويّ السماويّ، ويتحدث مع الملائكة، ويرى فعليًا الربّ يدنو منه، شعر بصدقٍ أنّه، في ضوء قداسة الله اللامتناهية، كان خاطئًا ما زال بحاجةٍ إلى وقتٍ للتصحيح. إنّ كلمات القديس سيسوي الكبير هي تذكيرٌ مهمٌّ بأنّ التوبة هي رحلةٌ تعيّرٌ روحيّ تدوم مدى الحياة.

Source: Priest Eugene Murzin (2024). "Why Did a Saint Doubt His Own Repentance on His Deathbed? The Profound Humility of St Sisoës the Great", *The Catalogue of Good Deeds*. Saint Elisabeth Convent, Minsk, Belarus. [Link](#).